لقب الســـــفاح

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

هذا موضوع كنت قيدته فى مذكرتى منذ سنين تحت هذا العنوان (لمن لقب السفاح) ، وكان هذا بعد أن قرأت فى كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة وصف عبدالله بن على ابن عبدالله بن عباس بالسفاح ، وتركه وصف أبى العباس به ، وهو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس ؛ فالأول عم الثانى ، وكان والياً له على الشام ، وهو الذى تولى فيه حرب بنى مروان ، وسفك فيه ما سفك من دمائهم ، ثم أخذت فى تحقيق ما رأيته من الاضطراب فى ذلك الوصف ، ودونت تحقيقاتى فى مذكرتى على هذا الترتيب :

١ — جاء فى ص ١٢٧ من كتاب المعارف لابن قتيبة وصف أبى العباس بالسفاح .

٢ — جاء فى تاريخ بغداد ص ٤٦ ج ١٠ تلقيبه بالمرتضى والقائم

٣ — جاء فى كتاب « خلاصة الذهب » المسبوك للأربلى ص ٤٠ تلقيب أبى العباس بالسفاح والمرتضى والقائم .

٤ — جاء فى ص ٤٧٧ ج ٥ من كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندى أن الخلف وقع فى لقب السفاح ، فقيل القائم ، وقيل المهتدى ، وقيل المرتضى

٥ — جا فى ص ٢٠٧ من تاريخ ابن العبرى أن أبا العباس كان رجلاً طويلاً أبيض اللون حسن الوجه ، يكره الدماء ، ويحامى على أهل البيت

٦ — قرأت ما كتبه ابن جرير الطبرى عن أبى العباس فلم أجد فيه وصف أبى العباس بالسفاح

٧ — جاء فى كتاب (الفاطميون فى مصر) للأستاذ حسن إبراهيم حسن أن الأستاذ دى غويه كان يرى أن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح

وقد وقفت عند هـذا فى مذكرتى ، وشغلت عن الكتابة فى هذا الموضوع بما فيها من الموضوعات الكثيرة ، إلى أن قرأت فى مجلة (الثقافة) الغراء بعض ما كتبه فيه الأستاذان الجليلان عبد الحميد العبادى وأحمد أمين ، فكنت والله كأنى فقدت بعض أولادى لأن أفكارى تبلغ عندى منزلة الأولاد ، وقد تكون أعز منها عندى ، وفى سبيلها يهون على ما ألاقيه من عنت واضطهاد فى هذه الحياة

ثم عزيت نفسى عن ذلك بما أغناها الله به من مثل هذه الآراء والأفكار ، وانتظرت ما ينتهى إليه أمر الأستاذين الجليلين فى ذلك الموضوع ، فلعلهما يتركان لمثلى الكلام بعدهما ، ويكون لى ما أعقب به عليهما . فلما فرغا منه وجدت الموضوع لا يزال فى حاجة إلى التحقيق ، ورأيت أنهما لم يصلا إلى تلك النصوص السابقة ، ولو أنهما وصلا إليها لتغير نظرهما فى ذلك الموضوع

لقد ذكر الأستاذ العبادى فى أول ما كتبه عن السفاح أنه كان شاباً مصوناً ، عفيفاً ، حسن المعاشرة ، كريماً ، معطاء ، ذا شعرة جعدة ، طويلاً ، أبيض ، أفنى الأنف ، حسن الوجه واللحية ، ورتب على هذا رأيه فى معنى لقب السفاح الذى عرف به أنه بمعنى الكثير العطاء ، وليس بمعنى السفاك للدم ، لأن مثل تلك الصفات التى كان السفاح يتحلى بها إنما تلتئم مع المعنى الأول للسفاح وهو المعطاء ، ولا تلتئم مع المعنى الثانى ، لأنه معنى ذم لا يلتئم مع تلك الصفات الكريمة

والأستاذ العبادى مسبوق بهذه النظرة إلى معنى السفاح الذى لقب به أبو العباس ، فقد ذكر الأستاذ حسن ابراهيم حسن فى بعض تعليقاته على كتابه (الفاطميون فى مصر) أن الأستاذ نيكلسن قال فى بعض كتبه : يقول الأستاذ بيفان الذى أدين له بهذه الملاحظات إن ترجمة لفظ السفاح ولو أن استعمالها قد شاع بين الكتاب الأوربيين لا تزال مثار الكثير من الشك ، وقد ذهب الأستاذ دى غويه إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح ، وإنه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل فى الجاهلية ، ويقال إن سلمة بن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة بنى كلاب الأولى (ابن الأثير — طبعة تورنبرج ج ١ ص ٢٤٦) سمى السفاح لأنه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة ، ثم قال : والذى أميل إليه أنه إنما سمى بهذا الاسم لقوله فى أول خطبة له (فأنا السفاح البيح والثائر المنيح)

وفى هذا النقل بعض من الاستقصاء العلمى الذى عرف به المستعربون الأوربيون ، ولكن فيه مع هذا تخليطاً كثيراً نحب

أن ننبه هنا إليه ، ثم نعود بعد إلى موضوعنا ، فقد سميت الوقعة فى ذلك النقل موقعة بنى كلاب ، وهو خطأ فى التسمية ، وإنما هو يوم الكُلاب الأول من أيام بكر وتغلب، وقد جاء فى القاموس (وكلاب كغراب موضع وماء له يوم) وكان هذا اليوم بين شرحبيل وسلمة ابنى الحارث بن عمرو ملك بكر بن وائل ، فإنهما اختلفا بعد موت أبيهما على الملك ، وتواعدا الكلاب ، فأقبل شرحبيل فى ضبة والرِّبابِ كلها وبكر بن وائل ، وأقبل سلمة فى تَغلِبَ والنمر وبهراء ومن تبعه من بنى مالك بن حنظلة ، وعليهم سفيان بن مجاشع ، وعلى تغلب السفاح بن خالد ، وإنما قيل له السفاح لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم : ابتدروا إلى ماء الكلاب فسبقوا ونزلوا عليه ، وقد قتل فى ذلك اليوم شرحبيل بن الحارث وجىء برأسه إلى أخيه سلمة ، فلما رآه دمعت عيناه ، وقال :

ألا أبلغ أبا حَنَشٍ رسولاً ... فمالك لا تجيء إلى الثوابِ
تَعَلَّمْ أن خير الناس طُرًّا ... قتيلٌ بين أحجار الكُلاب
تداعت حوله جُشَمُ بن بكر ... وأسلمه جَمَاسيسُ الرِّباب

وكان أبو حنش هو الذى قتله ، ثم بعث برأسه إلى سلمة مع عسيف له ، ولم يحضر بها مخافة منه ، فقال سلمة لعسيفه : أنت قتلته ؟ قال : لا ، ولكنه قتله أبو حنش ، فقال : إنما أدفع الثواب إلى قاتله، وكان قد جعل لمن يأتيه برأس أخيه مائة من الإبل

وقد رد الأستاذ أحمد أمين على استبعاد أن يكون أبو العباس سفاحاً بمعنى سفاك مع ما كان له من تلك الصفات الكريمة، بأن هذا لا شىء فيه ، لأن كثيراً من أبطال الجاهلية كان سفاكا للدماء ، ومع هذا كان يتحلى بمثل تلك الصفات التى كان يتحلى بها أبو العباس ، كعنترة العبسى وغيره . ورد عليه الأستاذ محمود محمد شاكر بأن الرقة والجمال ولين الخلق تخفى وراءها أحياناً قسوة لا يدانيها قسوة ، كالتى يكون فى النساء ، فإنهن قد عرفن بين الناس بالرقة ، وهن أغلظ أكباداً من الإبل . ومع هذا يرى الأستاذ محمود أن السفاح لقب أبى العباس من سفح المال لا من سفح الدم ، لأن أبا العباس كان يسمى عبدالله الأصغر ، وكان أخوه أبو جعفر يسمى عبد الله الأكبر ، وأبو جعفر قد لقبه أبوه فيما يعلم الأستاذ محمود بالمنصور ، فلا غرو أن يكون أبو العباس قد لقبه أبوه كما لقب أخاه ، ولا يعقل أن يلقب أحد ولده بمذمة سفح الدماء وهو ينصبه للناس خليفة ، وقد روى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يخرج منا رجل فى انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يقال له السفاح ، يكون عطاؤه المال حَثياً » وأئمة الحديث لا يصرفون هذا الاسم إلى أبى العباس ، ولكن بنى العباس استخدموا مثل هذا فى دعوتهم. فالسفاح إذن ليس من سفح الدم ، وهو بهذا المعنى مجاز مقصود لغرض بعينه

وإنى لا أوافق على أن العباسيين كانوا ينظرون إلى لقب السفاح بمعنى السفاك للدم مثل نظر الأستاذ العبادى والأستاذ محمود شاكر ، لأنهم كانوا يريدون منه السفاك لدماء أعدائهم ، وهذا عندهم لقب مدح لا ذم ، وقد تمدح به أبو العباس فى أول خطبة له فقال : « فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح » وفى رواية الطبرى « والثائر المبير » . ولا شك أنه إذا أمكننا أن نحمل السفاح المبيح على معنى سفح المال وإباحته ، فإنه لا يمكننا أن نحمل الثائر المنيح أو المبير إلا على معنى إهلاك الأعداء وسفح دمائهم وإباحة أهلهم عليهم . ولا مانع بعد هذا عندى فى أن يكون فى السفاح معنى سفح الدم وسفح المال ، ورأيى فى الحديث الذى جاء فيه ذكر السفاح أنه من الأحاديث الضعيفة ، والظاهر أنه لم يظهر إلا بعد انقضاء عهد السفاح ، وأنه كان يقصد به التقرب إلى العباسيين ، كالحديث الذى روى عن ابن عباس أنه قال : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لأدال الله من بنى أمية ، ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدى[1]

وأما ما ذكره الأستاذ محمود من أن السفاح بمعنى سفح الدم مجاز فينافيه ما ذكره الزمخشرى فى أساس البلاغة ، وهو الكتاب الذى يرجع إليه فى تمييز المعانى الحقيقية والمجازية ، فقد ذكر السفاح بمعنى السفاك للدماء فى الاستعمال الحقيقى لمادة س ف ح ، ولم يذكر فيه ولا فى الاستعمال المجازي معنى سفح المال ، وهذا يدل على أن استعماله فى الأول أقرب من استعماله الثانى ، ولنقف الآن عند هذا الحد ، لنتم بحث ذلك الموضوع بعد

عبد المتعال الصعيدى

(١) على أن الحديث ليس نصا فى أن السفاح بمعنى الكثير العطاء ، لأن الصفة كما تكون كاشفة تكون مؤسسة

معهد التناسليات
مدير المعهد التناسليات تأسيس الدكتور مأمون القريشلى فرع القاهرة بعمارة مدرية رقم ٤٦ شارع المرايع تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع أمراض الزهرية والجهاز التناسلى والعقم عند الرجال والنساء وتجميل الشباب والشعر فى الكبر - ويعالج بصفة خاصة بزيارة المساء طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦ - ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للمقيمين بعيداً عن القاهرة بعد أن يجيب أسئلة مجموعة من أسئلة البكر الزهرية والجنرية على ١٥ سؤالاً التى يمكن الحصول عليها بتقديم طلب